الفصل الثالث

الفكر النقدى فى مصر القديمة

قراءة فى « بردية ايبوور »

تمهيد :

تعددت صور الخطاب الفكرى فى مصر القديمة، ولاشك أنه كان من بين صور هذا الخطاب، الخطاب النقدى.

وقد كشفت الدراسات الآثارية عن عشرات البرديات التى تؤكد ذلك خاصة فى عصور القلق والاضطراب، عصور التحول والحراك الاجتماعى والسياسى. ولا يظنن أحد أن فى ذلك أدنى مبالغة أو تهويل؛ فالتراث الفكرى للمصريين القدماء من الضخامة بحيث يمكن القول أن ما اكتشف ليس إلا أقل القليل وأن ما نجهله منه حتى الآن كثير كثير! وليس أدل على ذلك من تأمل ما قاله ذلك الحكيم البارع المدعو : "خع خبر رع سنب" والذى اكتشف منقوشاً على لوح صبى من تلاميذ الأسرة الثامنة عشرة ؛ لقد قال "سنب" : ليتنى أعرف جُملاً لم يعرفها أحد، وتعابير غير مألوفة فى لغة جديدة لم تستخدم من قبل، ولم يكررها الناس بدلاً من التعابير التى شاخت وسبق أن قالها القدماء"[1].

إنها عبارة تدل دلالة واضحة على أننا أمام ناقد لغوى وأدبى كبير يبحث عن رؤية نقدية ولغوية جديدة يحاول من خلالها أن يجد له مكاناً بين أجيال متتالية من النقاد سبقوه واستبقوا كل ما يمكن قوله فى هذا المجال الذى يتحدث فيه ! !

أخطأ إذن من يقولون : بأن الفكر المصرى القديم فكر لم يعرف أصحابه "أدباً أو نقاشاً فلسفياً حقيقياً"[2]؛ فالحقيقة أن الفكر المصرى القديم قد احتوى كل صور الخطاب المعروفة حتى الآن، سواء كان خطاباً أدبياً (قصة وشعر ...إلخ) أو خطاباً فلسفياً أو خطاباً سياسياً واجتماعياً هذا بالإضافة إلى الخطاب الأخلاقى والدينى.

ولما كان اهتمامنا هنا منصباً على الخطاب النقدى، فيجدر القول، بأن

هذا الخطاب النقدى قد تفجر، كما قلنا سابقاً فى عصور القلق والاضطراب وخاصة فى تلك الفترة التى تقع فى قرب نهاية الدولة القديمة أى حوالى (2260 ق. م)، تلك الفترة التى شهدت ثورة اجتماعية شاملة نتيجة لوجود ذلك الكساد الاقتصادى والمجاعات والفوضى التى عمت البلاد. فقد ألهمت هذه الأحداث كُتاب تلك الفترة التعبير عن هذه الأحداث تعبيراً بدت فيه الروح الفلسفية النقدية ذات النزعة الشكية بشكل كبير. وكان من هؤلاء الكُتاب ايبوور الذى سنركز حديثنا حوله فى الصفحات التالية.

ولكن قبل أن نتوقف أمام بردية ايبوور بالتحليل يجدر بنا أن نتساءل : هل اقتصرت الكتابات النقدية فى مصر القديمة على النقد الاجتماعى والسياسى الذى اتسمت به بردية ايبوور وغيرهما مما ينسب إلى هذه الفترة القلقة من تاريخ مصر ؟ !

أولاً : تعدد صور الخطاب النقدى فى مصر القديمة :-

إن الحقيقة التى تكشف عنها القراءة المتعمقة للفكر المصرى القديم منذ اختراع الكتابة وبداية تسجيل المصريين لإبداعاتهم الفكرية، هى أن هذا الفكر لم يتطور منذ بداياته إلا عبر وجود الحس النقدى لدى مفكرى مصر القديمة فى المجالات الفكرية المختلفة.

فإذا نظرنا مثلاً فى مجال تطور فلسفتهم الطبيعية وتفسير حقيقة الوجود لديهم[3] سنجد أنها بدأت بالمذهب الشمسى الذى ظهر فى مدينة أون أو هليوبوليس القديمة، وهو المذهب الذى رد أصل العالم الطبيعى إلى "التاسوع" الإلهى أتوم وشو وتفنوة وجب ونوة وأوزيريس وإيزيس وست ونفتيس حيث ذرأ الإله أتوم أو أوجد من نفسه أول عنصرين من عناصر الوجود وتوالت بعد ذلك بقية العناصر فى الظهور كزوجين أحدهما ذكر والآخر أنثى.

وما لبث هذا المذهب الأول أن واجه النقد من مفكرى الأشمونيين أو مدينة

أونو أو هرموبوليس القديمة، حيث كثر الجدل حول ذلك المذهب القديم ونتج هذا الجدل ابتداعهم لمذهبهم الجديد الذى بدا أكثر مادية برده أصل الوجود إلى "الثامون" الذى يرتد إلى أربعة عناصر أساسية للوجود وهى : الماء الكثيف والظلام المحيط والقوة المنطلقة الدافعة والعنصر اللطيف الذى لا يُرى (الهواء).

وقد تطورت المذاهب المفسرة للطبيعة وأصل الوجود تطوراً هائلاً حينما انتقد فلاسفة منف القديمة هذين التفسيرين السابقين وأكدوا القوة الخلاقة للإله "بتاح" الذى لم يحتاج لديهم للعناصر أو للمادة القديمة ليبدأ منها خلقه للوجود، إنه لم يحتاج كما يشير "النص المنفى" إلا للكلمة الربانية التى تدبرها العقل الإلهى وأمر بها اللسان فتتابع خلق الأنفس وسائر الموجودات. إنه فكر وتأمل، ثم كان الأمر الذى نطق به فكانت الموجودات وكانت الأقوات والخيرات جميعاً بل أنه "وفقاً للناموس الذى تدبره العقل وخرج باللسان قدر لكل شىء قدره وأنجزت الأمور جميعها وأبدعت الفنون جميعها .. إلخ".

وعلى نفس النحو جاءت رؤية فلاسفة "واست" القديمة (الأقصر حالياً) للعالم الطبيعى بعد نظرتهم النقدية للنظريات السابقة ورفضهم لها. وهكذا كان حال إخناتون الذى انتقد كل تلك النظريات والتفسيرات السابقة وقدم لنا أول مذهب توحيدى فى تاريخ الفكر الإنسانى[4].

أما إذا نظرنا إلى مجال تطور فكرهم الأخلاقى فسنجد أن النزعة النقدية واضحة تماماً فى ذلك العصر الذى كتب فيه ذلك النص الذى أطلق عليه "أناشيد البائس"[5] والذى يقدم فيه الكاتب حواراً مع روحه أو (بائه) فى الاصطلاح المصرى القديم. ذلك الحوار الذى يقود الرجل إلى الشك فى قيمة كل شىء بما فيها الحياة نفسها على عكس ما كان معروفاً عن المصريين القدماء من حب للحياة. إن ذلك البائس الناقم على الحياة يعبر فى أنشودته وخاصة الأنشودة الثالثة منها عن تفضيله للموت على الحياة، بل ويعتبره "مثل الشفاء بعد مرض"، "كعطرة زهرة اللوتس، ومثل حقيقة الوقوف عند شاطئ السكارى". إنه (أى

الموت) أصبح "كطريق مألوف، كعودة الإنسان العائد من الحرب إلى داره" إنه "كالسماء التى تصفو عندما يكتشف المرء ما لم يكن يعرفه"(6).

واللافت للنظر فى هذا التطور النقدى المفاجئ للأخلاق التقليدية فى مصر القديمة، هو ظهور ما يمكن أن نطلق عليه حسب تعبير جون ويلسون – مذهب "اللاأدرية" أى المذهب القائل بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الإلهى، ذلك المذهب الذى دعى أصحابه إلى اتباع اللذة والانغماس فيها. وقد عبر عن هذا المذهب خير تعبير نشيد ذلك العازف على القيثار أمام نبلاء العصر وحكامه، حيث يقول بعد أن ذكر القوم بأن مقابر الأجداد أهملها الناس وتعرضت للسرقة والهدم، يقول : "لم يأت إلينا أحد ثانية من العالم الآخر ليحدثنا عما هناك، ويقول لنا : ماذا يحتاجون لتطمئن قلوبنا حتى يأتى اليوم الذى نسافر فيه إلى المكان الذى استقروا فيه"(7).

إنه يشكك إذن فى حقيقة ما يجرى فى العالم الآخر، ثم يبنى على هذا التشكيك حديثه الداعى إلى اقتناص اللذة فى هذه الحياة الدنيا بدلاً من انتظارها فى حياة أخرى لا نضمنها ولا نعرف بعد ماذا سيحدث لنا فيها. فهو يضيف قائلاً : "حقق كل رغباتك لتجعل قلبك ينسى ما ينتظرك من سعادة بعد الموت، وتمتع باللذة طالما عشت.. حقق كل رغباتك فى الدنيا حسب ما يمليه عليك قلبك.. إن البكاء لا يحمى قلب الإنسان من عذاب الجحيم ..تنزه ولا تحمل هماً أثناء ذلك. انظر! لا يستطيع أحد أن يأخذ معه ما يملكه عندما يموت، واعلم أنه لم يذهب أحد إلى العالم الأخر ثم عاد مرة أخرى"(8).

إننا أمام فكر يدعو إلى حياة اللذة الحسية ويحض على اقتناصها دون انتظار لما سيحدث بعد الموت، إننا أمام فكر مادى شبيه بفكر فلاسفة اليونان الذى سيظهر بعد ذلك فى مذاهب القورينائيين وأبيقور.

إن هذين النصين السابقين يكشفان عن صورتين نقديتين فريدتين للحياة الأخلاقية للمصريين القدماء وللمبادئ الأخلاقية التى نشأوا عليها ودرجوا على

أن يرددوها فى فكرهم منذ فجر تاريخ الحضارة المصرية مروراً بتعاليم بتاح حوتب فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، وحتى هذه اللحظة التاريخية التى كتبا فيها. إنهما من النصوص النادرة التى تكشف عن الحس النقدى من زاويتين متضادتين؛ فالنص الأول يدعو صاحبه إلى الزهد فى كل ما فى الحياة والتطلع نحو الموت الذى يرى فيه نجاته من آلام الحياة واليأس مما فيها. بينما يرى صاحب النص الثانى أن الحل فى اقتناص اللذات فى هذه الحياة الدنيا دون النظر إلى ما بعد الموت. أنه ذلك التطرف فى التعاليم الذى سنجده ماثلاً بعد ذلك فى التعارض فى الفلسفة اليونانية بين التعاليم الكلبية الداعية إلى الزهد فى اللذة والتحلى بالفضيلة وبين التعاليم القورينائية الداعية – كما أشرنا من قبل – إلى الانغماس فى حياة اللذة الحسية والإكثار من اقتناصها أينما وجدت.

وإذا كان ذلك التطرف فى النصين السابقين من نصوص الفكر المصرى القديم غير مبنى على أساس فلسفى متين فى تفسير طبيعة النفس الإنسانية وعلاقتها بالجسد، فإنه يستند على تحليل عقلى نقدى لطبيعة الحياة وعلاقتها بالعالم الآخر، فأحدهما يفضل الحياة على الموت، والآخر يفضل الموت على الحياة وكل واحد منهما يملك حججاً يبرر بها ما يعتقد أنه السبيل إلى تحقيق السعادة.

ولعل من أطرف وأعمق ما وجدناه من صور الخطاب النقدى فى مصر القديمة ذلك النص الذى نسب إلى رجل من أبناء الطبقة الوسطى يدعى "خيتى ابن دواوف" وقد كتبه لابنه المدعو "بيبى" ناصحاً إياه، وهو يوصله إلى المدرسة التى سيتعلم فيها بضرورة أن يحرص على تعلم مهنة الكتابة والتفوق فيها.

إن ذلك النص – الذى يرجع تاريخ كتابته إلى حوالى عام 2100 ق. م – أطلق عليه الأثاريون وعلماء التاريخ المصرى "فى هجو المهن"(9) أى فى نقد المهن المختلفة فى عصره. إنه ينتقد تلك المهن وخاصةً اليدوية منها حتى يقنع ابنه بأن يبتعد عنها ويفضل عليها جميعا مهنة الكتابة التى اعتبرها أسمى المهن وأهمها إذ "لا توجد مهنة لا رئيس لها إلا مهنة الكاتب، لأن الكاتب رئيس نفسه"(10). إن

خيتى يبدأ ذلك النص الفريد بأن يعطى لابنه فيما يبدو كتاباً لأحد الحكماء ليقرأه ويوصيه بأن يتم القراءة حتى النهاية ليكتشف الحكمة القائلة بأن كل مكان فى القصر – يقصد القصر الملكى – هو ملك للكاتب ومن ثم فهو لا يعيش فقيراً. ثم يؤكد له بعد ذلك أنه لا يرى وظيفة يمكن أن تقارن بوظيفة الكاتب ومن ثم يطالبه بحب كل ما يوصله وكل ما يؤهله لهذه الوظيفة ولذا يقول له : "أتمنى أن أستطيع أن أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك، كما أتمنى أن ينفذ جمالها – يقصد جمال الكتب – إلى وجهك" كما بدأ يلفت انتباهه إلى أن مهنة الكتابة هى أعظم المهن، وهى التى تكسب صاحبها الشهرة التى تجعل "الجميع يحيونه حتى وإن كان لا يزال طفلاً، وهو يوفد لإبلاغ الرسائل ولا يعود ليرتدى ورزة"(11).

وبعد هذا الإطراء الذى لم نر مثيلاً له فى الآداب العالمية فى ذلك الزمن القديم، يبدأ فى نقد المهن الأخرى وبيان مدى ما تصيب به المرء من أذى وما تسببه له من متاعب؛ "فالحداد يمارس عمله أمام فوهة فرنه وأصابعه مثل جلد التمساح ورائحته أكثر كراهية من بيض السمك". والنجار "متعب أكثر من الذين يتعاملون بالمعزق (يقصد الفلاحون).. وهو يظل يعمل فوق ما تقوى عليه ساعداه". "وقاطع الأحجار عند فراغه من عمله يكون ساعداه قد هلكا ويكون منهكاً وإذا جلس عند الغسق تكون ركبتاه وعاموده الفقرى منحنية". "الحلاق يحلق حتى يحل المساء.. وينتقل من شارع إلى شارع بحثاً عمن يحلق له ويستهلك ساعديه ليملأ بطنه".. أما "البستانى الذى يحمل العصا الطويلة فإن كتفيه منهكان وكأنه طاعن فى السن وتعانى رقبته من انتفاخ جسم متقيح".. أما "الشغال فى الحقول فشكواه أكثر من شكوى الدجاج وصيحاته أقوى من نعيق الغراب. أصابعه متورمة، تحمل رائحة كريهة.. إن الآلام من نصيبه.."(12).. وهكذا يدور النص بعد ذلك حول مثل هذه الآلام والمتاعب التى يلقاها ويعانيها أصحاب المهن المختلفة لينتهى بنفس ما بدأ منه من تأكيد على أن مهنة الكتابة هى أسمى المهن وأرقاها وأن كل شىء يسير بالنسبة لصاحبها على أحسن وجه(13).

إن مدح مهنة الكتابة والكاتب كان شيئاً مألوفاً فى الفكر المصرى القديم، فكم من المفكرين المصريين القدامى قد عبروا عن ذلك أمثال بتاح حوتب فى "مخطوط الحكمة"، وسنب حوتب الذى قال : إن "الكتابة تجعل الكاتب أسعد من امرأة وضعت طفلاً، كميلاد الطفل الذى يعوض الأم أضعاف ما تحملته من آلام فى حمله وولادته فلا تشعر بأى تعب وهى تقوم لترضعه ثديها كل يوم"(14). أما كاجمنى فقد قال معبراً عن فرح الكتابة لدى الكاتب وعن قيمتها لديه؛ "فرح هو قلب الكاتب الذى يزداد شباباً كل يوم بما يعطى للناس فغذاء العقل الذى تقدمه للناس باق أما غذاء البطون الذى يعطيه لهم الغير لا يدوم"(15). أما اخناتون فحديثه عن ذلك فى بردياته المكتشفة من تل العمارنه فهو آية من آيات التقدير والتقديس للكتابة والتعليم ويكفى أن نشير إلى قوله : "العلم أول أركان الإيمان بالخالق لقنه الإله للإنسان بالخط والقلم وعن طريق المعرفة بالقراءة والكتابة يتفتح عقل الإنسان لتقبل علوم المعرفة المقدسة وينفتح قلبه للإيمان بالخالق" وقوله : "إذا أردت أن تورث ابنك ميراثاً لا يفنى فورثه العلم، فالعلم هو الثروة التى تزداد كلما أخذت منها ولا تورثه المال، فالمال هو الثروة التى تنقص كلما أخذ منها(16).

إن ذلك المدح للكتابة والإشادة بمكانة الكاتب وحرفته كان كما قلنا فيما سبق مسألة شائعة فى الفكر المصرى القديم، لكن الجديد كان ذلك النقد الذى وجهه خيتى فى النص السابق الإشارة إليه للمهن الأخرى. إنه فى ثنايا نقده للمهن الأخرى قد كشف عن الجوانب المضيئة التى من أجلها فضل هو كما فضل كل المصريين، وخاصة من أبناء الطبقة الارستقراطية والوسطى مهنة الكتابة ورفعوا من شأنها. إن فى ذلك الهجاء للمهن الأخرى، كما فى ذلك المدح والثناء على مهنة الكتابة والتأليف والحض على التعلم والتعليم الدليل الساطع على إدراك الإنسان المصرى القديم لحقيقة أن الحضارة لا يبنيها إلا العلم والعلماء وأنه بدون هذا وذاك لا يكون التطور أو التقدم. فالثقافة والعلم أساسان للتحضر والمدنية ولا وجود لهذين الأساسين إلا بتعلم القراءة والكتابة؛ فالعلم هو سلاح

وهبه الإله للكاتب وهو الذى بجانب الحق ولا يخط إلا الصدق وهو للمبصر كالعكاز بالنسبة للأعمى؛ إنه هو الذى يبصر به ويرشده إلى طريق الحق ويكشف له سر الوجود(17).

ولاشك أن ذلك الطريق، طريق الحق واكتشاف سر الوجود لا يكون فقط بالكتابة فيما يفكر فيه الإنسان أو فيما يكتشفه وما يصل إليه من إبداعات، وإنما يكون أيضاً من خلال النظرة النقدية لما قاله السابقون أو لبعض ما يراه من جوانب سلبية فى الواقع الذى يعايشه.

ومن هنا فقد كان المفكر المصرى القديم مدركاً للأبعاد المختلفة لأهمية الكتابة ودور الكتابة؛ إذ لم يعد الأمر مقصوراً على مجرد الحض على تعلم القراءة والكتابة، بل تعدى ذلك لإدراك أهمية الكتاب والكُتب كأداة للإبداع والتقدم الحضارى سواء عبر فيها الكاتب عن رؤية نقدية للواقع أو عن رؤى إيجابية يطمح إلى تحققها فى المستقبل.

وإن كنا فى الفقرات السابقة قد ركزنا على بيان تلك الصور المتعددة للخطاب النقدى فى الفكر المصرى القديم، والتى غلب عليها الطابع النظرى المجرد سواء فيما يتعلق بفلسفة الطبيعة وتفسير أصل الوجود أو فيما يتعلق بنقد الخطاب الأخلاقى السائد أو فيما يتعلق بنقد المهن اليدوية وتفضيل مهنة الكتابة، فإننا سنركز فى الصفحات التالية على صورة الخطاب النقدى فى الحياة فإليها تنتمى شكاوى القروى الفصيح، وإليها تنتمى كذلك نبوءات نفررهو وكلاهما انتقد بشدة الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة، وكشف ما فيها من فساد وظلم وتعسف، مع فارق هام هو أن شكاوى القروى كانت تمثل خطاب الشعب فى نقد الأوضاع السائدة، بينما كانت تمثل نصوص ونبوءات نفررهو خطاب النخبة أو خطاب الحكماء(18). وفى إطار تحليل خطاب الحكماء سيكون تركيزنا على تحليل أحد صور البارزة المتمثلة فى بردية ايبوور أو ما أطلق عليه المؤرخون "تحذيرات ايبوور".

ثانياً : الخطاب النقدي فى بردية ايبوور :

(أ) التعريف بالنص وكاتبه :

عاش ايبوور أو ايبو العجوز فى أواخر عهد بيبى الثانى وهو الملك الخامس من ملوك الأسرة السادسة التى حكمت مصر من حوالى عام 2430 ق. م حتى 2230 ق. م أو فى عهد أحد خلفائه الضعاف. وقد كان ايبوور فيما يبدو أحد الإصلاحيين فى عصره، وكان قريباً من السلطة السياسية، وربما كان يتولى بعض المناصب السياسية، حيث بدا من النص أنه قابل الملك نفسه(19).

أما النص فقد عرف اصطلاحاً باسم "بردية ليدن" بعد أن انتقل إلى حوزة متحف ليدن بهولندا، وكانت أول دراسة كاملة لهذا النص مع ترجمته قد قدمها جاردنر فى ليبزج عام 1909م (20). وقد أطلق الباحثون عليها بعد ذلك أسماء مختلفة؛ فقد أطلق عليها برستيد "تحذيرات ايبوور"(21) وأطلقت عليها كلير لالويت "مرثيات ايبوور"(22)، وإن كان الأصدق تعبيراً عن مضمونها أن نطلق عليها "تحذيرات ونبوءات ايبوور"(23) حيث أن هذا النص يصف حالة الفوضى الأخلاقية والسياسية والاجتماعية التى عمت البلاد فى أعقاب الاضطرابات والثورة الاجتماعية مع نهاية عصر الدولة القديمة وإبان مرحلة الانتقال الأولى حوالى عام 2190 – 2070 ق. م.

وقد اشتمل هذا النص على ستة أجزاء أو أدوار تبدأ كلها بكلمة واحدة تكررت كلازمة فى كل المقاطع، وهى كلمة "انظر" أو "انظروا" وبعدها يورد ايبوور تعليقاً أو نقداً لإحدى حالات أو صور الفوضى والاضطراب التى شاهدها فى البلاد. ويتدرج النص من وصف هذه الحالة البائسة اليائسة المضطربة إلى التحسر على أيام الماضى الجميل التى شهدتها قبل ذلك ثم ينتقل من هذا وذاك إلى التنبؤ بأن الأيام المقبلة فى المستقبل ستشهد عودة لهذه الحياة الآمنة المستقرة المزدهرة حيث سيعود المصريون إلى سابق عهدهم، ليعيشوا حياة مرحة جميلة على ضفاف نهر النيل.

(ب) نقد الحالة القائمة فى البلاد :

إن النص فى مجمله يعد اتهاماً مفعماً بالغضب يصوغه ايبوور فى صورة أدبية مفعمة بالحزن والألم ويقدمه أمام ملك البلاد الذى لم يعرف اسمه بالتحقيق حتى الآن وفى حضور آخرين، ربما كانوا من حاشية ذلك الملك المجتمعين لديه فى هذه اللحظة.

وقد تعددت الصور النقدية التى قدمها ايبوور فشملت تقريباً كل جوانب الحياة الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فى البلاد.

وهو يبدأ بنقد الأوضاع الاجتماعية المقلوبة التى تسود البلاد، حيث قال : "لقد ابتليت البلاد بعصابات اللصوص وعلى المرء أن يذهب للحرث ومعه ترسه.. إن الجريمة فى كل مكان... والرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات... وخدمهم مهموموا القلب، وعظماء الأمس لم يعودوا يختلطون رجالهم ليفرحوا .. إن الأغنياء ينتحبون والمعوزين فى فرح.. إن جسد السيدات النبيلات يعانى من الأسمال التى ترتدينها وقلوبهن مغمومة عندما يقوم المرء بتحيتهن. إن من كانوا يشيدون المنازل باتوا الآن يعملون فى الحقول... ومن كانوا فى قارب الإله صاروا الآن يساقون إلى العمل على متنه... لقد اختفت البسمة فلا أحد يبتسم... إن الشكوى هى التى تعم البلاد مختلطة بالنحيب... إن الكبار والصغار يتمنون الموت ويقول الصبية الصغار "ما كان ينبغى لأبى أن يمنحنى الحياة"[(24)].

أما الأوضاع السياسية، فقد انتقدها بشدة مؤكداً على أن حركة الحكومة قد توقفت تقريباً؛ "فقد سلبت مدونات قاعة المحفوظات الكبرى ومكان الأسرار قد جرد محتوياته... والمكاتب الإدارية قد فتحت واختفت منها السجلات، بحيث أن من كان قنا يمكن أن يصبح سيد أقنان. كما قتل الكتبة واختفت مدوناتهم.. وكتبة مكتب الحبوب قد انتزعت دفاترهم... أما قوانين القاعة الخاصة (يقصد قاعة العدل) قد طرحت خارجاً ويدوسها الناس فى الشوارع ويمزقها المعوزين فى الطرقات ..." كما أن المجلس الخاص العظيم قدتم اجتياحه

والمعوزين يروحون ويجيئون فى البيوت العظيمة"[25]... إلخ.

وقد ركز على نقد الأوضاع الاقتصادية التى تغيرت فى البلاد وغيرت وجهها المشرق، وتسببت فى هدم استقرارها وفقدان أهلها للسعادة والأمان؛ فقد حدثت فوضى اقتصادية شاملة فى البلاد لدرجة تسببت فى قلب الأوضاع تماماً "فمن كان لا يملك شيئاً هو الآن يمتلك، ومن يشكلون شعب مصر هم منذ الآن قوم آخرين يدلهم الناس على الطريق (يقصد أن الأجانب صاروا كثرة مفسدة فى البلاد)... لقد أصبح العظماء جوعى ويتألمون بينما أصبح للخدم من يخدمهم... إن الذى لم يكن فى إمكانه أن يصنع لنفسه تابوتاً بات يمتلك الآن مقبرة... إن السيدات الكريمات الأصل يرقدن على الألواح والأعيان ألحقوا بالحوانيت، والذى لم يكن فى مقدوره أن ينام ولو على صندوق يمتلك الآن سريراً... إن من كانوا يمتلكون موائد نحاسية للمسكوبات لم تعد هناك الآن جرة واحدة بين جرارهم تحاط بجدائل الزهور.

إن من كان لا يمتلك شيئا هو الآن رجل موسر والعظيم يقدم له التكريم.. إن من كان لا يجد خبزاً يملك مستودع حصاد ومخزنه ملئ بممتلكات الغير.. ومن لم يكن عنده مجرد علبة، فى حوزته صندوق حلى، ومن كانت ترى وجهها فى الماء تمتلك الآن مرآة نحاسية.. من لم يكن يمتلك مجرد ثورين مقرونين صار فى حوزته الآن قطيعاً.. من لم يكن فى استطاعته أن يجد ثيراناً للحرث يمتلك الآن المواشى.. من لم يكن لديه بذور يمتلك الآن مخازن غلال، من كان يجلب لنفسه قمحاً يقترضه يقوم هو الآن بتوزيعه"[26].... إلخ.

أما الأوضاع الأخلاقية والدينية، فقد لاقت اهتماماً غير عادى من جانب ايبوير فقد انتقد ما صارت إليه أخلاقيات الناس وعقائدهم ورموز هذه العقيدة بلغة بالغة القوة والإتقان؛.. فالذين كانوا فى "المكان الطاهر" يوضعون فوق المرتفع، لأن أسرار التحنيط قد ضاعت.. لقد أقصى السادة المقدسون فى "المكان الطاهر" إلى مرتفع بينما ذلك الذى كان لا يستطيع أن يصنع لنفسه تابوتاً بات

الآن فى "بيت الخزنة"(27).

إذا كان ذلك عن انفلات الوضع الدينى للبلاد وعدم احترام قدسية أماكن دفن الموتى وعدم احترام رجال الدين، فإن أخلاق العامة قد تدهورت، بشكل لم يعرفه المصريون من قبل "فاللصوص أصبحوا فى كل مكان، والخادم محمل بما استولى عليه" وبعد أن تأكدت القدرة للجميع (يقصد أن هيبة الدولة قد ضاعت فأتاحت للجميع أن يتصرفوا كما يشاءون) صار الإنسان يضرب شقيقه المولود من أمه وصار الناس يقولون : ماذا يحدث ؟! ... صارت الطرق والدروب محروسة (يقصد مراقبة من قِبَل اللصوص)، ويجلس المرء فى الأدغال حتى يصل أحد مسافرى الليل فيستولى على أمتعته ويجرده من كل ما معه ويمتعه بضربات من عصاه، ثم يقتله بإجرام"(28). لقد انتشرت صور الجريمة المختلفة فى البلاد لدرجة جعلت "مواطنو الأمس (يقصد المصريون من أهل البلاد) يروحون ويجيئون وهم ينتحبون.. وآه لو كان هذا هو نهاية البشرية لما حملت النساء ولما أنجبن قط ولغرقت الأرض فى السكون.."(29).

لقد ساءت كذلك أحوال التجارة الخارجية فلم يعد هناك من يقلعون بسفنهم إلى الخارج سواء لجلب ما يحتاجه الناس داخل البلاد أو لتصدير ما يفيض عن حاجتهم "فأصبح القوم – كما يقول ايبوور – لا يقلعون بسفنهم شمالاً إلى جبيل (وهو أعظم ميناء تجارى فى فينيقيا آنذاك)(30).

أما الأحوال العسكرية وقوة الجيش، فلم تعد هى الأخرى بالطبع على ما يرام، حيث انتقد ايبوور كذلك هذه الأوضاع موضحاً أن أملاك مصر وأراضيها صارت نهباً للغزاة وأصبح رجال الجيش غير قادرين على صد غزوات الآسيويين على حدود الدلتا(31).

وهكذا عمت نظرة ايبوور النقدية كل ما فى البلاد من أوضاع داخلية وخارجية، وبالطبع فإن هذه النظرة النقدية الشاملة للبلاد لم تكن لتكون بذات الأهمية، لولا أننا نعلم أن ايبوور قد قدمها فى حضرة الملك وأمام حاشيته؛ ففى

ذلك دلالة على أن الأمور قد صارت أسوأ ما يمكن تصوره بما أتاح لايبوور أن ينقلها بهذه الجرأة أمام ملك ذلك الزمان، بل ويتهمه بأنه هو السبب فى كل ذلك، فقد بلغت جرأة ايبوور النقدية أن قال للملك الذى اعتبر رمزاً للفناء بتعبير "جون ويلسون"، قال له : تتجمع فيك السلطة وشدة الإحساس والعدل ولكنك لا تنشر فى البلاد غير الفوضى وضوضاء المنازعات... انظر كل شخص يطعن الآخر لأن الناس يمتثلون لما تأمر به.. فهل أصبح الراعى يحب الموت ؟! إن هذا يعنى فى الحقيقة أنك سعيت حتى يحدث ذلك وأنك كاذباً فى قولك!!"(32).

(جـ) رد ملكى على النقد وتعقيب ايبوور:

إن المتوقع فى تلك الحالة لو أن الأمور كانت عادية أن يصب الملك جام غضبه على ايبوور ويأمر بإهلاكه، لكن ما تقوله الوثيقة التى أمامنا غير ذلك؛ فقد كان الملك هو الآخر يأسى لحال الرعية ويأسف لما وصل إليه الحال، ومن ثم فقد حاول فى رده على اتهامات ايبوور توضيح أنه حاول حماية شعبه بالوقوف فى وجه الغزاة والأجانب الذين كانوا يهاجمون البلاد(33)" !

وحينما سمع ايبوور عن الملك هذا الرد خجل فيما يبدو وتراجع عن لهجته اللاذعة الغاضبة ونظر – فيما يقول ويلسون – إلى مولاه الملك بشىء من العطف وقال بأن الملك أحسن القصد، ولكنه لم يصل إلى الغرض وعزا ذلك مرة أخرى إلى جهل الملك وعدم كفاءته(34). وقد عبر ايبوور عن ذلك بقوله : إذا كنت تجهل ذلك فإنه أمر محبب إلى القلب. لقد فعلت ما هو حبيب إلى قلوبهم (يقصد قلوب المصريين)؛ لأنك جعلت الناس يعيشون بسبب ما فعلته ولكنك تغطى وجوههم خوفاً من الغد"(35).

ولاشك أن هذه المناقشة الحامية حول أوضاع البلاد بين أيبوور وملكه، إنما تكشف عن روح ديمقراطية حقيقية بدت فى هذا العصر، تلك الروح التى سمحت لأحد الحكماء أن ينتقد أراء الملك علناً وأمام حاشيته مؤكداً له أن

مقابلة الخطر ليست هى كل شىء فى الحكم الصالح الذى يتطلب من الحاكم مجهوداً إيجابياً لا يكل [36].

(د) نبوءات بشأن المستقبل :

إن ما قدمه ايبوور فى نصه السابق لم يكن مجرد عرض نقدى لأداء ملكه ولأوضاع بلاده الاقتصادية والأخلاقية والسياسية.. إلخ، ولكنه تميز بأنه قد ضمنه نبوءات بشأن المستقبل بعد أن أقام موازنة بين العصر الذى يتحدث فيه وينتقد أحواله وبين أداء ملوك مصر السابقين وأحوال المواطنين التى كانت سعيدة ومتفائلة؛ فالمستقبل سيحمل عودة لما تمتع به المصريون من خيرات وأحوال سياسية وأخلاقية واقتصادية مستقرة.

ففى الدور الخامس من النص الذى أمامنا يتذكر ايبوور متحسراً الأيام السعيدة الخوالى التى عاشها المصريون ويذكر به مليكه الواقف أمامه قائلاً له فى نهايته "تذكر مراعاة القواعد والتتابع الصائب للأيام.."[37].

ثم يبدأ الدور السادس بعد ذلك مباشرة ليوضح أنه لأمر طيب أن يعود الحال كما كان وتتحسن الأحوال وتعود الطرقات معدة للنزهة والناس سعداء ويشربون بقلب بهيج وتملأ صيحات الفرح جميع الأفواه، وذلك لن يكون إلا عندما تكون حاجة كل إنسان حينئذٍ مكفولة بكل بساطة [38].

إنه ذلك الحلم الذى يحلمه ايبوور بعودة المملكة المصرية الهادئة السعيدة المستقرة ويرى إمكانية تحققه وأن شعبه لجدير به.

خاتمة :

إن العرض السابق لهذه اللمحات من الفكر النقدى فى مصر القديمة وخاصة فى بردية ايبوور يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن المفكر المصرى القديم كان لديه مساحة من الحرية، وكان قادراً على معالجة الشأن الداخلى لبلاده

بنظرة نقدية. وبالطبع فلا أحد يدعى فى ضوء ذلك أن المفكر المصرى القديم كان لديه مذهباً نقدياً أو بلور فلسفة نقدية كتلك المذاهب التى وجدناها بعد ذلك فى تاريخ الفكر الفلسفى قديماً وحديثاً، ولكن الشيء المؤكد أن بذور الفكر النقدى وخاصة فى مجالات الأخلاق والسياسة والاجتماع قد نبتت فى مصر القديمة كما نبتت فيها بذور الفكر الفلسفى والعلمى عموماً.

*** ***

هوامش الفصل ومراجعه

1- أحمد فخرى : الأدب المصرى القديم ضمن كتاب "تاريخ الحضارة المصرية – العصر الفرعونى"، المجلد الأول، من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى، مكتبة النهضة المصرية، بدون تاريخ، ص 452.

2- أنظر منهم : كلير لالويت، الأدب المصرى القديم، ترجمة ماهر جويجاتى، كتاب "فكر" (16)، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة 1992م، ص 39.

3- أنظر فى هذه النظريات حول تفسير أصل العالم الطبيعى بحثنا بعنوان "فلسفة الطبيعة وتفسير نشأة الوجود فى مصر القديمة" المنشور فى كتابنا "نحو تأريخ جديد للفلسفة القديمة" الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1997م، ص 23 وما بعدها.

4- أنظر بحثنا "إخناتون – الملك الفيلسوف" الذى نشر ضمن كتاب "فلاسفة أيقظوا العالم"، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1998م، ص 28 وما بعدها.

5- أنظر : نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، المجلد الأول : عن الفراعنة والبشر، ترجمة ماهر جويجاتى عن الترجمة الفرنسية لكلير لالويت، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع 1984م، ص 302.

6- نفس المصدر السابق، ص 307.

7- جون ويلسون : الحضارة المصرية، ترجمة د. أحمد فخرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة – بدون تاريخ، ص 198 – 199.

8- نفسه، ص 199.

9- أنظر : نصوص مقدسة ونصوص دنيوية، ص 271.

وكذلك : كلير لالويت، الأدب المصرى القديم، ص 39.

10- نصوص مقدسة ونصوص دنيوية، ص 275.

11- نفسه، ص 272.

12- نفسه، ص 272 – 273.

13- أنظر : نفس المصدر السابق، ص 275.

14- نقلاً عن : د. سيد كريم، الحكم والأمثال فى الأدب الفرعونى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1997م، ص 123.

15- نقلاً عن نفس المرجع السابق، ص 124.

16- نقلاً عن نفس المرجع، ص 126.

17- هذه النصوص نقلاً عن نفس المرجع السابق، ص 124.

18- انظر تحليلنا لهذين النموذجين من الخطاب النقدى السياسى فى كتابنا : الخطاب السياسى فى مصر القديمة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة 1998م، ص (87) وما بعدها، ص (137) وما بعدها.

19- أنظر : نفس المرجع السابق، ص (115- 116).

وكذلك : د. عبدالعزيز صالح، الشرق الأدنى القديم – جـ1 مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 3 – القاهرة : 1982م، ص 149.

20- أحمد فخرى، نفس المرجع السابق، هامش ص 449م.

A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig 1909.

21- برستيد، فجر الضمير، الترجمة العربية لسليم حسن، ص 207.

22- كلير لالويت، نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، ص 219.